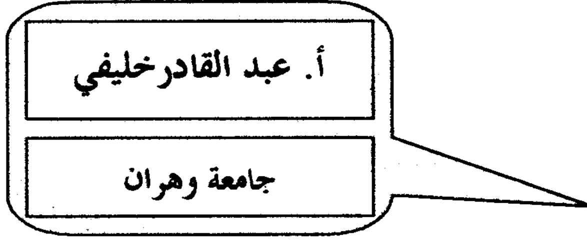
حركة الشيخ بوعمامة في الجنوب الكبير


أ. عبد القادرخليفي
جامعة وهران

الجنوب الكبير:

لقد ارتبط تاريخ الصحراء الجزائرية دائما بالأجزاء الشمالية من الوطن، وشارك أبناء هذه الجهة كل الجزائريين أفراحهم وأتراحهم، وهكذا تعرضت بلادهم للغزو الفرنسي مثلما تعرض الجزء الشمالي لذلك، فدخلها المغامرون والتجار والمبشرون والعسكريون.

لقد كانت الصحراء بتضاريسها المترامية ومناخها القاسي - بالنسبة لهؤلاء - لغزا يتطلب الحل لمعرفة خفاياه[1] وعجائبه. واهتم الفرنسيون كثيرا بهذه الصحراء كطريق، وليس كحاجز، بين أجزاء القارة المختلفة من جهة، وبينها وبين أوربا من جهة أخرى، ولذا وصف "الدعاة الفرنسيون الصحراء بأنها الإسمنت المسلح للتعاون الإفريقي - الأوروبي، إذ أنها المغناطيس القوي الذي يقرب بين إفريقيا وأوروبا."[2]

وهكذا ربطت فرنسا - عن طريق الجنوب - مستعمراتها في الشمال والغرب والوسط وأصبحت الجزائر بصحرائها الواسعة نقطة اتصال بين أوربا وإفريقيا، ففي القرن التاسع عشر ظهر

---

1 جورج غير ستر — الصحراء الكبرى أرض الغد المشرق للجزائر العربية — تعريب خيري حماد — المكتب التجاري للطباعة والنشر — بيروت 1961 — ص: 324.

2 انظر:

Louis Rinn: Nos frontières sahariennes – in Revue africaine – N°30 de 1886 – OPU – Alger 1985

مشروعان لتذليل الصحراء واستغلالها لتحقيق أهداف الاستعمار الفرنسي، وهما سكة حديدية عابرة للصحراء وبحر الصحراء الداخلي. أما في القرن العشرين فقد ازدادت أهمية الصحراء الجزائرية بعد اكتشاف المحروقات، ازداد تمسك الفرنسيون بهذه المنطقة.

أما سكان الصحراء فلم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الغزو الفرنسي وأطماعه، سواء كان عسكريا و تجاريا أو دينيا، بل واجهوا كل ذلك بمختلف أنواع المقاومة، كما استقبلوا مجاهدي ومقاومي الشمال حين انسحب هؤلاء ـ اضطراريا ـ إليهم فناصروهم وقدموا لهم يد العون والمساعدة.

حركة الشيخ بو عمامة:

تعد مقاومة الشيخ بوعمامة حركة التي ارتبطت بالجنوب الكبير، وانطلقت في مقاومة مسلحة بمنطقة جبال القصور في الجنوب الغربي الجزائري سنة 1881، بزعامة بوعمامة بن العربي التاجي سليل أولاد سيد الشيخ "المُرَابطينْ"، الذين كان تأثيرهم يمتد من ورقلة شرقا إلى فكيك غربا، لقد كانوا هم الأسياد في هذه المنطقة حتى سنة 1830.[1]

لقد واجهت حركة الشيخ بوعمامة القوات الفرنسية مواجهة عنيفة خلال سنتي 1881 و1882، واستنفر كل منهما قواته، وتواجه الطرفان في معارك عديدة مما أدى إلى وقوع قتلى وجرحى من الطرفين، وتشردت قبائل بأكملها وهاجرت أخرى منطقة نجعها.

ومن بين تلك المعارك والحوادث نجد معركة تازينة ـ مولاق ـ في 19 ماي 1881 التي انتصر فيها الشيخ، وألحق بالقوات الفرنسية ـ التي كان يقودها العقيد إينوسنتي INNOCENTI ـ خسائر كبيرة وأجبرها على الانسحاب في اتجاه بلدة الخيثر شمالا بدل ملاحقة قواته.

كما قام الشيخ بوعمامة بمسيرتين نحو الشمال لإثبات قوته وتوسيع حركته ومعاقبة بعض أعوان الفرنسيين، أولهما المسيرة الكبرى التي قام بها في شهر جوان من سنة 1881 حيث اقترب من بلدة سعيدة ومعسكر ـ على الرغم من استنفار الفرنسيين لقواتهم من أجل القبض عليه ـ

1 ـ انظر: Echos d'oran N°4821 du 15 décembre 1881-

فهاجمت قواته بعض القبائل الموالية للفرنسيين وحطمت منشآت الشركة الفرنسية الجزائرية لاستغلال الحلفاء ببلدة خلف الله. وقامت بقطع الخط الهاتفي الرابط بين فرندة والبيض. وبعد ثلاثة وعشرين يوما (23) عاد المقاومون الجزائريون سالمين إلى بلدة بوسمغون جنوبا في 21 جوان 1881.

وفي شهر جويلية قام الشيخ بمسيرة ثانية نحو الشمال. أحاطت فيها قواته بالشط الشرقي وعادت إلى بلدة التواجر بعد أن خاضت معارك أشهرها معركتا الخيذر وولهاصي. ولم تتمكن القوات الفرنسية من اعتراض سبيلها أو منعها من تحقيق أهدافها.

وفي 15 أوت 1881 قام الجنرال نيقري NEGRIER بتفجير قبة سيد الشيخ التي عدها رمزا للمقاومة وثأرا لهزيمة تازينة. وخاض المقاومون من قبائل العمور معارك دفاعية عديدة في جبل "بني سمير" و"مزي" و"مير الجبال" جنوب غربي عين الصفراء خلال شهري أكتوبر ونوفمبر من السنة نفسها[1]. وفي شهر ديسمبر 1881 وصلت القوات الفرنسية إلى قصر مغرار الفوقاني ثم التحتاني فاستنطقت السكان وحجزت نخيلهم ودمرت مسكن الشيخ بوعمامة وصادرت ممتلكاته.

وفي بني ونيف دافع أنصار الشيخ عن أنفسهم في أثناء انسحابهم نحو الجنوب. وفي الثاني من شهر أفريل 1882 خاض المقاومون معركة فندي وكانت الخسائر متبادلة. وقد انسحب الشيخ بقواته فيما عادت القوات الفرنسية إلى عين الصفراء.

وفي السادس والعشرين (2) من الشهر نفسه هاجم أنصار الشيخ من جزائريين ومغاربة قوات الضابط الفرنسي دوكاستري في تيقري غربي عين الصفراء وكبدوها خسائر كبيرة. وقد ثأر الفرنسيون لهذه الهزيمة بإغارتهم على قبائل بني غيل المغربية ـ حلفاء الشيخ ـ في واد الشارف بالأراضي المغربية في شهر ماي 1882.

---

1 ـ رسالة السلطان المغربي المؤرخة في 15 شوال 1300هـ/1883م.

ولكن اختلال ميزان القوى لصالح الفرنسيين أجبر الشيخ على الانسحاب نحو الجنوب كما أن السلطان المغربي آنذاك رفض مساعدته، وحرض سكان بلدة فكيك على مطاردته [1]. فاتجه إلى منطقة دلدول في الجنوب الجزائري حيث استقبله سكان بلدة أولاد عبو التابعة حاليا لدائرة آوغروت ولاية أدرار. وقد استقر هناك في الفترة الممتدة من سنة 1883 إلى سنة 1894.

وسنتعرض فيما يأتي لعلاقة الشيخ ـ خلال هذه المرحلة ـ بثلاث وحدات صحراوية هي: 1 - دلدول ـ 2 ـ الشعامبة ـ 3 ـ الطوارق والسنوسيين:

1 ـ في دلدول:

لقد رحب سكان منطقة دلدول بالشيخ بوعمامة وبخاصة في بلدة أولاد عبو باعتباره مجاهدا وينتمي إلى عائلة من "المرابطين".

كان الشيخ يقيم داخل القصبة، وعندما توافد عليه الناس خرج من القصبة وبنى الخيام والزرائب على أطرافها، حيث توجد إلى اليوم قبة أقيمت على ذكراه، تسمى "مَقَامْ سِيدِي بُوعَمَامَة".

في هذا المكان من الجنوب الكبير أعاد الشيخ بناء زاويته، التي انتعشت بالتحاق عدد هام من أتباعه القادمين من شمال الصحراء، كما عمل على نشر الطريقة الشيخية في المنطقة وتعليم مختلف الفروض الدينية. وتعبئة الناس لمواجهة المشاريع الفرنسية. وأصبحت زاويته ملجأً لكل عابر سبيل أو طالب حاجة، أو فار من بطش الاستعمار وظلمه. يجد فيها الغذاء والمأوى والأمان.

ومن هذه المنطقة ـ من دلدول ـ راسل الشيخ بوعمامة، سي محمد العربي المدغري شيخ ومؤسس الطريقة الدرقاوية بتافيلالت فكسب دعمه ومؤازرته [2].

1 ــ عبد الوهاب بن منصور ــ أعلام المغرب العربي ــ ج: 02 ــ المطبعة الملكية ــ الرباط 1979 ــ ص: 78.
2 ــ أحمد العماري ــ مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب من حوالي 1830 إلى حوالي 1902 ــ رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ــ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ جامعة محمد الخامس ــ الرباط ــ 1981 ــ ج:03 ــ ص: 822.

وجاءته وفود من مختلف الجهات سنة 1883 تعلن مناصرته وتطلب دعواتــه ورضاه وتستمع إلى توجيهاته ونصائحه. منها قبائل البرابر القادمين من الغرب والذين ترجوه أن يستقر بينـهم. كما انضمت إليه في هذه الفترة قبائل منطقة بشار والساورة كدوي منيـع وأولاد جريـر والغنانمـة. وجاءته جماعة من الفرسان من واحة تيمي بتوات فيهم الشـيخ أبـو حسـون وأخـوه عبـد الرحمن وهما من الشخصيات البارزة في المنطقة. إلى جانب شيوخ آخرين مرافقين لهمـا مـن أولاد عروشة ومن بني تامرت ومن ادغاغ وغيرهم من سكان واحات قورارة وتوات [1].

وقد استقبل الشيخ بوعمامة سنة 1894 وفدا من قبيلة أولاد جريـر ـ في أثنـاء وجـوده بـالعرق الغربي الكبير ـ وقام بحل مشكلة قتلاهم من قبل الشعامبة التابعين لزمالتـه بعـد أن فـرض على هؤلاء دفع دية تتكون من عشرين جملا. وبعد أيام حضر إليه وفد من قبيلة بـني قيـل المغربيـة. وحاول إيجاد حل مرض لمشـكل الصـراع بينـهم وبـين أولاد جريـر. ولكنـه لم يوفـق ممـا أدى إلى مغادرة عدد كبير من خيام أولاد جرير لزمالته.

أما سكان منطقة القصور وشمال الصحراء عامة فقد بقي الشيخ على اتصال دائم بهم مـن خـلال تلك الرحلات التجارية التي كان يقوم بها هؤلاء نحو منطقـة تـوات وقـورارة وتاديكـالت فكـانوا يزورونه هناك. ينقلون إليه أخبار مناطقهم ويستمعون إلى نصائحـه وتوجيهاتـه. "ومـن السـهل إذن ـ كما يقول أحد الفرنسيين ـ أن يستمر الشيخ في ربط علاقاتـه مـع قبـائل الجنـوب الوهرانـي والجنوب الشرقي المغربي ـ فكيك وتافيلات ـ وأن مقدميه يعملون بنشاط ضد فرنسا."[2]

1 ـــ انظر:

-De la Martinières et Lacroix :Document pour servir à l'étude du nord ouest africain – gouvernement général de l'Algérie –A.jourdan – Alger 1897

2 ـــ عبد الحميد زوزو ـــ ثورة بوعمامة 1881–1908 ـــ ش و ن ت ـــ الجزائر ـــ 1983 ـــ ص: 16.

ويقول المؤرخ الجزائري عبد الحميد زوزو في هذا المجال: "والواقع أن التجاء بوعمامة وأتباعه إلى قورارة لا يعني العزلة ونهاية النشاط. وإنما القصد منه هو تنظيم الصفوف من جديد والاستعداد لاستئناف الحركة." [1]

لم ينعزل الشيخ بوعمامة إذن بل كانت اتصالاته عديدة من خلال استقباله لوفود مختلفة ولمراسلاته للقبائل والقياد وللفرنسيين أيضا يشرح فيها موقفه ويحسّن علاقاته ويجس نبض هذه الجهة أو تلك ليتخذ الموقف المناسب. ومن ذلك مراسلته للسلطان مولاي الحسن الأول يطلب فيها المساعدة لاستئناف الجهاد ولكن هذا الأخير يرد عليه بالرفض خوفا من اتخاذ الفرنسيين لذلك ذريعة للتوسع والاحتلال.

أما عن المعارك التي خاضها الشيخ بوعمامة في أثناء وجوده بمنطقة دلدول. فقد حاولت حصرها من خلال بعض الكتابات الفرنسية التي تمكنت من الإطلاع عليها وهي قليلة. إذ تنحصر في بعض الهجمات المحدودة لأن الشيخ لم يكن قد قرر الدخول ثانية في معارك مواجهة.

ويُذكر في هذا المجال أن جماعة من أنصاره من أولاد مولات من توات قامت سنة 1886 بغارة على إحدى القبائل الموالية للفرنسيين جنوبي بلدة مغرار بالأطلس الصحراوي. وفي السنة الموالية قامت جماعة أخرى من قبائل الشعامبة والطوارق بعملية قتالية ضد القوات الفرنسية في تلك الجهات. (2) ومن ذلك أيضا هجوم أنصار بوعمامة على قوات فرنسية في حاسي بوخنفوس وقد نفذت العملية بكل جرأة (3). كما يقول أحد الفرنسيين. "وفي خريف سنة 1891 قام البعض من الشعامبة بهجوم على بعض أعوان الفرنسيين على بعد 150 كم شمالي ورقلة. استولوا فيها على

1 ـــ انظر: مرجع سابق: -DE la Martinières et La croix: Document. p: 173

2 المرجع نفسه ـــ ص: 149.

3ـــ دنيس بيلي ـــ معالم لتاريخ ورقلة 1872 ـــ 1992 ـــ ترجمة علي إيدر ـــ مطبعة هيور كسوم 1995 ـــ ص: 28.

حوالي 1300 رأس من الإبل ثم انسحبوا إلى توات جنوبا. كما قام رجال بوعمامة ومعهم جماعة من الطوارق بغارة استولوا فيها على 600 رأس من الإبل وقتلوا أحد عشر رجلا." (1)

2 - مع قبائل الشعامبة:

الشعامبة قبائل عربية تسكن الصحراء الوسطى اعتادت على حياة الترحال في الصحراء الجزائرية الواسعة. محبة للحرية والاستقلال. راسلها الشيخ بوعمامة داعيا إياها إلى الجهاد والانضمام إلى حركته. بخاصة وأن الطريقة الشيخية كانت منتشرة بين أفرادها. ومما جاء في هذه الرسالة نجد ما يأتي: "إلى جماعتنا المحروسة بعين الرضا. كافة جماعة الشعامبة. أخص منهم الأعيان القائمين بأمر الزمان قبيلة بعد قبيلة من غير تخصيص. أرشدكم الله وأعانكم. وللخير والجهاد وفقكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيته ورضوانه وخيرته وإحسانه وإنعامه وأفضاله.

وبعد. فنعلمكم. أعلمكم الله خيرا. نريد قدومكم ونتلاقوا (كذا) على أمر الجهاد في سبيل الله هذا الأمر نادا (كذا) المنادي من قبال (كذا) الله. ومن رسول الله (ص). وبأمر رجال الله الصالحين. من أراد منكم ذلك. فالله يوافقه (كذا) وينعمه (كذا) يأتينا في الحليات هذا الموعد الصحيح الذي بيننا وقبينكم. ومن لم يرده. فلا حاجة لنا به ولا يأتين (كذا) بعد ذلك والسلام..."(2)

من هنا يتضح وجود هذه القبائل في مخطط الشيخ بوعمامة. ورغبته في ضمها إلى صفه لقوة شكيمتها وإخلاصها للطريقة الشيخية. ولو لم يكن متأكدا من وقوفها معه لما كاتبها في هذا الأمر.

---

1 ــ عبد الحميد زوزو ــ نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830-1900 ــ المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر 1984 ــ ص: 137.

2 ــ انظر:

-Bajolle (cap) : La question saharienne – conférence de garnison – in Bulletin de société de géographie et d'Archéologie d'oran – 1891 – p :168.

لقد لبت قبائل الشعامبة نداء الجهاد وكانت لزعيم المقاومة المساند الجرئ المنفذ والمطبق لكثير من العمليات العسكرية ضد الفرنسيين وأعوانهم سواء خلال وجوده في دلدول بالجنوب الجزائري أم بعد لجوئه إلى المغرب الأقصى.

ولقد قام الشيخ بربط صلة القرابة بينه وبين هذه القبائل عن طريق مصاهرتها حيث تزوج منها امرأة هي "بنت إبراهيم" التي أنجبت منه ثلاثة أبناء، هم: الشيخ وإبراهيم وأحمد، هذا الأخير هو أصغر أبنائه، عاد إلى الجزائر بعد استقلالها سنة 1962 واستقر بعين الصفراء حيث أنشأ زاوية ما تزال إلى اليوم.

لقد انضم الشعامبة إلى حركة الشيخ بوعمامة وعملوا معه بكل إخلاص وتفان، وفي هذا المجال يشير أحد الضباط الفرنسيين إلى أن عددا من أفراد قبائل الشعامبة غادروا مواطنهم في (متليلي - ورقلة - المنيعة) سنة 1887 واستقروا في دلدول إلى جانب الشيخ، "وهو مؤشر خطير - كما يقول الضابط الفرنسي - عل قبائلنا الصحراوية خاصة وأنهم أصبحوا تحت سلطته (أي سلطة الشيخ بوعمامة) ولا يستمعون إلا إليه. وهم على استعداد للقيام معه مثلما فعلوا مع محمد بن عبد الله بوشوشة." (1)

لقد وقفت قبائل الشعامبة مع الشيخ بوعمامة زعيم مقاومة 1881 مثلما وقفت قل ذلك سنة 1864 مع مقاومة أولاد سيدي الشيخ.(2) وحارب الشعامبة معهم في عدة مواقع وعدوا زعماءهم أبطال الجنوب البواسل، وعندما عقد هؤلاء الهدنة مع الفرنسيين سنة 1883 تخلوا عنهم "واتجهوا نحو الشيخ بوعمامة الذي عدّوه محي الإسلام وهو مهاجر في الجنوب في انتظار الوقت المناسب"(3)

---

1 – يحي بوعزيز – ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20 – ج: 01 – منشورات المتحف الوطني للمجاهد – الجزائر – 1996 – ص: 174

2 – انظر: مرجع سابق: Document - p:862 -DE la Matières et La croix:

3 – انظر المرجع نفسه – ص: 151. وتشير إحصائية مخطوطة من متليلي أن عدد الذين التحقوا بحركة الشيخ سنة 1888 هو: 271 مجاهدا. وأن البعض تم اعتقالهم من قبل السلطات الفرنسية.

أما عن عدد أفراد الشعامبة الموجودين مع الشيخ فتشير بعض الإحصاءات أن عدد خيامهم التي كانت موجودة معه في دلدول سنة 1890 هي 84 خيمة.[1] وبعد خروج الشيخ بوعمامة من منطقة دلدول واتجاهه نحو الشمال كانت الوحدات القبلية الموجودة معه آنذاك، أي سنة 1895 حسب إحصائية فرنسية هي على الشكل الآتي:

اسم القبيلة	سنة هجرتها	الجهة التي تنتمي إليها
عكرمة	1881	البيض
أولاد مومن	1888	البيض
بني ثور	1889	غرداية
مخادمة	1880	غرداية
شعامبة أولاد إسماعيل	1884	غرداية

بالإضافة إلى قبائل أولاد قطيب من العمور وأولاد سيد التاج وأولاد سيد الشيخ الغرابة وأولاد جرير ودوي منيع. أي حوالي 500 خيمة بـ 700 بندقية.[2]

3 - مع الطوارق والسنوسيين:

كان رجال الطوارق يجوبون الصحراء الكبرى طولا وعرضا، وكانت لهم جاليات في تاديكالت وتوات القريبتين من مقر استقرار الشيخ بوعمامة. وكان بعضهم أتباعا للطريقة السنوسية التي كان يمثلها المهدي ولد باجودة في عين صالح. هذا الأخير الذي أبدى موافقته على

1 ـ انظر مرجع سابق: -DE la Martinières et La croix: Document. p: 931

2 ـ انظر:

- Charles Robert Ageron: Histoire de l'Algérie contemporaine – T :2 – Presses universitaires de France – Paris 1979 – p :175

مساندة الشيخ بوعمامة للوقوف معه ولكسبه إلى جانبه لمواجهة الطريقة التجانية التي كانت تنافس السنوسيين في الصحراء الكبرى.

لقد كان السنوسيون يقومون بدور مهم في تعبئة المسلمين وتجنيدهم لمواجهة الغزو الاستعماري الصليبي في إفريقيا، ولا شك أنهم اتصلوا بالشيخ بوعمامة في أثناء جولاتهم في الصحراء.

لقد حذر الفرنسيون بعضهم البعض من الاتصالات التي تقع بين الشيخ ورجال السنوسية الخطيرين، وقامت حملة صحفية اتهمت الشيخ بالاتصال بهذه الحركة الخطيرة التي تهدد المستقبل الفرنسي في المنطقة بخاصة، وفي القارة الإفريقية بعامة، وصرح تيرمان (الحاكم العام) لصحيفة "Le Matin" الصادرة يوم 23 ماي 1885 أنّ الحركة السنوسية تمثل أكبر خطر يهدد الجزائر. ويرى المؤرخ الفرنسي شال روبير أجيرون أن الحركة السنوسية كانت ذات تأثير كبير في إفريقيا عامة وبلاد المغرب العربي خاصة، إذ "يعزى إليها قيام عدد من الانتفاضات. إذ لا تنسب إليها مذبحة فلاترز سنة 1881 فحسب، وإنما ـ ولو جزئيا ـ انتفاضة بوعمامة 1881 كذلك." (1)

أما سكان منطقة الهقار فقد راسلهم الشيخ بوعمامة طالبا منهم الانضمام إلى حركته، وقد تلقى منهم الرد في جويلية سنة 1888.(2) و على الرغم من أن إجابتهم لم تكن إيجابية لما كان يرجوه الشيخ منهم، فإن العلاقة بين الطرفين أصبحت جيدة، حيث استقبل وفودا من وفودهم، وتحصل منهم ـ كما يقول سي حمزة بوبكر ـ على بعض الهدايا و"الزيارات".(3)

ومما يثبت العلاقة بين الطرفين الرسالة التي نشرها الأستاذ سعد الله وهي موجهة من الضابط فورو إلى محمد العروسي شيخ الزاوية التجنية ببلدة قمار بتاريخ 12 جوان 1895، يخبره فيها

1 ـــ عبد الحميد زوزو ـــ ثورة بوعمامة... ص: 67–69.

2 ـــ انظر:

-Si Hamza Boubakeur :Un soufi algérien, sidi cheikh…Edition Maisonneuve et Larose – Paris 1990 – p :249

3 ـــ أبو القاسم سعد الله ـــ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ـــ ج:02 ـــ المؤسسة الوطنية للكتاب ـــ الجزائر 1986 ـــ ص: 345.

عن رحلته إلى بلاد الطـوارق "وما تعرضـت لـه المنطقـة مـن فـتن بسـبب هجـوم أنصـار بوعمامـة عليها."[1]

إن الرسالة تكشف بكل وضوح عن امتداد حركة الشيخ بوعمامة إلى منطقة الهقار والضـابط الفرنسي لم يسمع بالخبر ولكنه رآه ولمس تأثيره في المكان نفسه. هذا المكان الذي لم يكـن منعـزلا عما كانت تعيشه المناطق الشمالية من الوطن. لارتبـاط سـكان الهقـار بمختلـف الجـهات وسـرعة حركتهم بين أطراف القارة كلها.

أما الشيخ بوعمامة فكان ـ وهو في الجنوب مثلمـا كـان في الشمال ـ السيد المطاع وصاحب الحل والربط. يزوره الناس من كل جهة. كما كان يلتجئ إليه المتخاصمون للتوسـط بينـهم، لأنـه الشيخ الوقور والعالم الفذ والمرابط المحترم، فيقبلون نصائحه ويعملون بتوجيهاته. مـن ذلـك أنـه استقبل في جانفي 1891 وفدا من الطوارق القادمين من أزجار وأهقار لعقد اتفاقية سلم بينهم وبين قبـائل الشعامبة. وقد حضر اللقاء مختلف زعماء الشعامبة المستقرين في الواد وورقلة ومتليلي والمنيعة(2).

إن قيام الشيخ بالوساطة في هذه الاتفاقية بين أكبر تجمعين للقبائل الصحراوية (الشعامبة والطوارق) دليل على المكانة التي كان يحظى بها لدى القبائل التي كانت تسيطر على كل الصحـراء الجزائرية. ولكن ذلك لم يكـن كـاف لاسـتئناف المقاومـة المسـلحة فـالصحراء الشاسـعة وصعوبـة الحركة فيها وقلة الأسلحة، ورفض السلطان المغربي تقديم المساعدة للشيخ كلها عوامل من شـأنها أن تحبط همم الرجال وتثني من عزائمهم.

---

1 ـــ انظر مرجع سابق: -DE la Martinières et La croix:... p321

2 ـــ انظر المرجع نفسه ـــ ص:142.

موقف السلطات الفرنسية:

لقد عمل الفرنسيون في الجزائر منذ اندلاع مقاومة 1881 على الإسراع في مد السكة الحديدية نحو المنطقة الجنوبية الغربية للسيطرة عليها. وكان التوسع نحو الجنوب على أشده تنفيذا للسياسة الاستعمارية الهادفة إلى ربط المستعمرات الفرنسية الإفريقية ببعضها. أما وجود الشيخ في الجنوب محاطا بمن حوله من الأتباع فكان يشكل عقبة في وجه تحقيق أهداف الاستعمار الفرنسي. مما أدى إلى قلق السلطات الفرنسية خاصة بعد هجرة سكان ما كانوا يدعونه بـ"الجنوب الوهراني" نحو مقر الشيخ في دلدول، وقد اعتبرت السلطات الفرنسية أن ذلك العدد الكبير الموجود بجواره له روح عدائية ضد فرنسا مما يمثل تهديدا دائما لمراكزهم الجنوبية ولأتباعهم في هذه المنطقة. (1)

ولقد كان من نتائج انضمام قبائل الشعامبة إلى حركة الشيخ ودعم منطقة ميزاب للحركة، أن قامت السلطات الفرنسية بإلغاء الوضع الخاص الذي كان يعيشه سكان منطقة ميزاب بموجب اتفاقية راندون سنة 1853. وهكذا تم إلحاق المنطقة بالنظام العسكري، لأن سكان ميزاب خرقوا الاتفاقية - في نظر الفرنسيين - لقيامهم بتموين حركة الشيخ بالذخائر والأسلحة التي حملها الشعامبة "خدام" سيد الشيخ.

وهكذا وفي نوفمبر سنة 1888 وصل الجنرال de la tour d'auvergne إلى منطقة ميزاب بطابوره وأعلن إلحاقها بالحكم الفرنسي. وأنشأ حصنا قرب غرداية. وتمركزت بهذه المدينة حامية عسكرية. وأنشئ مكتب يدير دائرة ميزاب التي تشمل أغاليك ورقلة وشعامبة متليلي وشعامبة القليعة. (2)

---

1 ــ انظر:

- Henri garrot :Histoire général de l'Algérie – imprimerie p.crescenzo – Alger – 1910 – p :999

2 ــ انظر مرجع سابق: -Louis Rinn: Nos frontières... p: 236 à 242

ولقد دعا مختلف من كتب عن الصحراء من الفرنسيين إلى احتلالها في أقرب وقت. منهم الضابط رين Louis Rinn الذي دعا إلى مد السكة الحديدية بعيدا نحو الجنوب. وكتب يقول: "سنكون أكثر قوة من البدو الذين يسيطرون على هذه المنطقة" ويتأسف هذا الضابط على تأخر وصول السكة الحديدية إلى بلدة عين الصفراء مما يعرقل مسيرة الفرنسيين إلى الجنوب ويشجع أنصار بوعمامة. ويؤكد أنه لا تقدم ولا أمن داخلي أو خارجي دون احتلال كل الصحراء الجزائرية. [1]

ويحذر ضابط فرنسي آخر - باجول - حكومته من وجود الشيخ بوعمامة في الجنوب. ويدعو إلى الاستيلاء على قورارة وتوات وتاديكالت لإنشاء الإمبراطورية الإفريقية المستقبلية. [2]

وهكذا وتطبيقا للسياسة الفرنسية تم الاستيلاء على بلدة المنيعة سنة 1891 لحماية وجودها في المنطقة وتسهيل الاتصال بمنطقة قورارة. وهو الهدف الذي كان الفرنسيون يسعون إلى تحقيقه وبهذا أصبحت المنيعة ذات الموقع المتوسط للصحراء الجزائرية. مركزا لمراقبة الصحراء والتجسس على بوعمامة واتصالاته مع قبائل الجنوب والشمال على حد سواء.

ومن هناك بدأت السلطات الفرنسية تحضر للاستيلاء على قورارة وتوات وتاديكالت والتي ستتمكن منها بين سنتي 1899 و 1900. في الوقت الذي كان الشيخ قد غادر تلك المنطقة وكان موجودا بنواحي بني ونيف وفكيك في الجنوب الغربي الجزائري.

ولكن الفرنسيين لم يهدأ لهم بال مادام الشيخ داخل الجزائر وهو في مركز قوة محاطا بالأتباع المستعدين للوقوف معه إذا ما استأنف المقاومة من جديد.

---

1 ــ انظر:

- Bajole (cap): La question saharienne, conférence de garnison – in Bull. Trim. de soc. de géo. et Arch. d'oran 1891

2 ــ عبد الوهاب بن منصور ــ مرجع سابق ــ ص :83.

ولذلك عملت السلطات الفرنسية للضغط على السلطان المغربي للتخلص من بوعمامة وذلك عن طريق مفوضيتها بطنجة. وهكذا راسل السلطان المغربي بوعمامة طالبا منه مغادرة المنطقة. كما طلب من سكان بلدة فكيك معاداته وعدم تقديم أي نوع من المساعدة له. "...ونأمركم أن تطلقوا النداء في أسواقكم كلها بمنع جميع من ورد من قبله لاكتيال أن نحوه. والتضييق به وبسائر من معه..."(1)

الخلاصة

مما سبق يتضح أن الشيخ بوعمامة لم ينعزل في الجنوب. بل كان يحاول استعادة قواه وينتظر الوقت المناسب لإعادة الكرة على الفرنسيين. وقد كانت اتصالاته بقبائل الصحراء كالشعامبة والطوارق وسكان الواحات الصحراوية. دليل على أن الشيخ كان يجس نبض سكان هذه الجهات. ليتعرف على إمكان معاودة تنشيط حركته. إلا أن اتفاق مصالح السلطات الفرنسية والمغربية أجبرته على الانسحاب ثانية من الجنوب للبحث عن ملجإ آخر. وقد واتته الفرصة عندما انضم إلى حركة الجيلالي الزرهوني الملقب بـ "بوحمارة" او "الروقي" الذي ثار على السلطان المغربي متهما إياه بموالاة الأوربيين ووضع مقدرات البلاد بين أيديهم. وانتقل ـ لذلك ـ الشيخ إلى منطقة وجدة إلى أن وافته المنية في أكتوبر من سنة 1908 بعيون سيدي ملوك.

